قصـــص الرحـــالة

— ٨ —

« الكابتن كوك يكشف أستراليا »

« أسعدتم صباحًا يا أبنائي ! ! أنا كوك ؛ وقد ولدت في يوركشير « Yorkshire » بإنجلترا . ووالدي كان فلاحًا . أمَّا أنا فقد كنت شديد الغرام بالبحر ؛ وقد قضيت كل حياتي في البحار . وقمت بكثير من الرحلات في أنحاء العالم المختلفة . وآخر رحلاتي كانت على درجة كبيرة من الأهمية ؛ لأني استطعت أن أثبت للملاء ، أن أستراليا ليست متصلة بغينيا الجديدة ، كما كان يعتقد الجميع ؛ وأن زيلندة الجديدة ، مجموعة جزائر مستقلة أيضًا .

الكابتن كوك

ولقد شاهدت كثيرًا ، في رحلاتي هذه ؛ ولاقيت الأمرّين من أهالي « زيلندة الجديدة » كما حدث لزميلي « تاسمان » . ولعلّ أغرب ما رأيت هو سكان أستراليا الشرقية . هؤلاء القوم لم ينقطعوا لحظة واحدة عن رمينا بالحراب ؛ وقذفنا بالأحجار ؛ بمجرد أن رسونا على ساحل بلادهم . وكان مظهرهم عدائيًا للغاية ، ولقد حاولنا اجتذابهم إلينا ، بجميع الوسائل التي كانت تنفع مع غيرهم ؛ ولكنهم أصروا على عدائهم ؛ ورفضوا ما قدمناه لهم من هدايا صغيرة ، من الخرز والمسامير والمرايا وغيرها .

وأجسام هؤلاء القوم متوسطة الحجم والطول ، معتدلة القوام ؛ رقيقة العظام . ولونُ بشرتهم كلون الخشب المحروق وشعرهم أسود ؛ يقصونه بين حين وآخر ؛ أمَّا لحاهم ؛ فيقصونها كرءوسهم ؛ أو يتركونها تطول قليلاً ثم يهذبونها .

وهم لا يلبسون على أجسامهم شيئًا مطلقًا ؛

وَلٰكِنَّهُمْ يَتَحَلَّوْنَ بِعُقُودٍ مِنَ الصَّدَفِ ، وَأَسَاوِرَ مِنَ الشَّعْرِ الْمَضْفُورِ . وَالرِّجَالُ يُعَلِّقُونَ فِي أُنُوفِهِمْ ، قِطْعَةً مِنَ الْعَظْمِ طُولُهَا ، عَشَرَةُ سَنْتِمِتْرَاتٍ تَقْرِيباً وَفِي سَمْكِ الإِصْبَعِ . وَيَثْقُبُونَ آذَانَهُمْ ، وَلٰكِنَّهُمْ لاَ يَلْبَسُونَ الأَقْرَاطَ ؛ وَهُمْ جَمِيعاً ، رِجَالاً وَنِسَاءً وَأَطْفَالاً ؛ يَدْهَنُونَ أَجْسَامَهُمْ وَوُجُوهَهُمْ بِدُهَانٍ أَبْيَضَ ؛ يَجْعَلُ مَنْظَرَهُمْ غَرِيباً لِلْغَايَةِ .

وَلِلْقَوْمِ أَسْلِحَةٌ كَثِيرَةٌ يُقَاتِلُونَ بِهَا ؛ وَلٰكِنَّ أَشَدَّهَا فَتْكًا الْحِرَابُ . وَهِيَ إِمَّا مُدَبَّبَةٌ (السَّارَةُ) وَإِمَّا مُثَبَّتٌ بِأَطْرَافِهَا عِظَامٌ حَادَّةٌ ؛ هِيَ فِي الْغَالِبِ أَنْيَابُ «الْقِرْشِ» (وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ السَّمَكِ الْمُفْتَرِسِ). وَهُمْ يَقْذِفُونَ الْحِرَابَ ، بِيَدٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ ؛ وَيُجِيدُونَ الرَّمْيَ لِدَرَجَةِ أَنَّهُمْ لاَ يُخْطِئُونَ الْهَدَفَ مُطْلَقًا ، عَلَى مَسَافَةِ خَمْسِينَ مِتْرًا أَوْ أَكْثَرَ . وَهُمْ فِي الْقِتَالِ يَلْبَسُونَ دُرُوعاً مِنَ الْخَشَبِ .

وَيَعِيشُونَ جَمَاعَاتٍ صَغِيرَةً ، قُرْبَ السَّوَاحِلِ ، أَوْ عَلَى شَوَاطِئِ الأَنْهَارِ . وَلَيْسَتْ لَهُمْ مَسَاكِنُ ثَابِتَةٌ ؛ بَلْ هُمْ رُحَّلٌ ؛ يَعِيشُونَ حَيْثُ يَجِدُونَ الْغِذَاءَ ؛ وَهُمْ لاَ يَحْتَرِفُونَ مِهَنًا ؛ وَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا عَنْ فَلاَحَةِ الأَرْضِ ، وَزِرَاعَتِهَا ؛ وَلٰكِنَّهُمْ يُجِيدُونَ صَيْدَ السَّمَكِ وَالْوُحُوشِ . وَهُمْ لاَ يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ نِيئًا ؛ بَلْ يَشْوُونَهُ عَلَى نَارٍ ضَعِيفَةٍ .

وَأَكْوَاخُهُمْ ، الَّتِي يَأْوُونَ إِلَيْهَا ؛ حَقِيرَةٌ لِلْغَايَةِ ؛ لاَ تَزِيدُ فِي اتِّسَاعِهَا عَلَى «الْقُرْنِ» ؛ وَلاَ تَرْتَفِعُ كَثِيراً عَنْ سَطْحِ الأَرْضِ . وَهُمْ يَتَّخِذُونَهَا مِنْ أَغْصَانِ الأَشْجَارِ ، وَأَوْرَاقِهَا ؛ وَلاَ يَلْجَئُونَ إِلَيْهَا إِلاَّ فِي الأَيَّامِ الْمُمْطِرَةِ .

وَالْقَوْمُ يُحِبُّونَ النَّوْمَ حُبًّا جَمًّا ؛ فَهُمْ يَقْضُونَ كُلَّ أَوْقَاتِهِمْ تَقْرِيباً ، فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ ؛ وَقَدْ يَسْتَلْقُونَ فِي الْعَرَاءِ ، عَلَى الأَرْضِ ، كَمَا تَفْعَلُ الْوُحُوشُ .

تِلْكَ هِيَ حَالَةُ الْقَوْمِ ، الَّذِينَ حَاوَلْنَا الاِتِّصَالَ بِهِمْ ؛ وَالتَّحَبُّبَ إِلَيْهِمْ . وَلَقَدْ حَدَثَ مَرَّةً ، أَنْ كُنَّا عَلَى بُعْدِ مِيلَيْنِ مِنَ الشَّاطِئِ ؛ فَرَأَيْنَا جَمًّا غَفِيراً مِنْ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ ؛ يَحْمِلُ بَعْضٌ مِنْهُمْ قَارِباً . وَظَنَنَّا بَادِئَ الأَمْرِ ، أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ الْمَجِيءَ إِلَيْنَا ؛ فَاقْتَرَبْنَا مِنَ الشَّاطِئِ ، طَمَعًا فِي لِقَائِهِمْ ، وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِمْ ؛ وَلٰكِنَّهُمْ ، لَمَّا رَأَوْنَا مُقْبِلِينَ ؛ أَهْرَعُوا إِلَى الْغَابَاتِ ، وَاخْتَفَوْا فِيهَا عَلَى الْفَوْرِ .

وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى ، رَأَيْنَا عَدَدًا كَبِيراً مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ عَلَى الشَّاطِئِ ؛ فَاقْتَرَبْنَا

مِنْهُمْ بِسُفُنِنَا ؛ قَصْدَ التَّفَاهُمِ مَعَهُمْ ؛ وَلٰكِنَّهُمْ فَرُّوا جَمِيعاً ، كَمَا فَعَلَ الآخَرُونَ ؛ إِلاَّ رَجُلَيْنِ ، ثَبَتَا فِي مَكَانِهِمَا ؛ وَبَدَا مِنْهُمَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا مُصَمِّمَانِ عَلَى مَنْعِنَا مِنَ النُّزُولِ إِلَى الْبَرِّ ؛ إِذَا نَحْنُ حَاوَلْنَا ذٰلِكَ . وَقَذَفْنَا لَهُمَا مَرَايَا وَخَرَزاً وَعُقُوداً ، لِنُلْهِيَهُمْ عَنِ الشَّرِّ ؛ وَلٰكِنَّهُمَا كَانَا يَلْتَقِطَانِ تِلْكَ الأَشْيَاءَ ، وَبَعْدَ أَنْ يُقَلِّبَانِهَا قَلِيلاً ؛ يَرْمِيَانِهَا ؛ وَيُحَوِّلاَنِ أَنْظَارَهُمَا إِلَيْنَا ، فِي تَرَقُّبِ مَا يَحْدُثُ مِنَّا . وَلَمَّا حَاوَلْنَا النُّزُولَ إِلَى الْبَرِّ ؛ هَجَمَا عَلَيْنَا ؛ فَأَطْلَقْتُ عِيَاراً نَارِيّاً مِنْ بَيْنِهِمَا وَلَمْ يُحْدِثْ فِيهِمَا أَيَّ فَزَعٍ يُذْكَرُ . غَيْرَ أَنَّهُمَا ، عَلَى أَثَرِ ذٰلِكَ ؛ جَرَيَا ، وَعَادَا بَعْدَ قَلِيلٍ يَحْمِلاَنِ كَمِّيَّةً كَبِيرَةً مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَحْجَارِ . وَأَخَذَا يَقْذِفَانِ عَلَيْنَا الأَحْجَارَ ، وَيَرْمِيَانِ الْحِجَارَةَ عَلَى سُفُنِنَا ؛ وَكُنَّا نُقَابِلُهُمَا بِنَادِقِنَا . وَبَعْدَ قِتَالٍ قَصِيرٍ ، فَرَّ الرَّجُلاَنِ إِلَى الْغَابَاتِ ؛ وَرَسَوْنَا نَحْنُ عَلَى الْبَرِّ ؛ وَرَفَعْنَا عَلَيْهِ الْعَلَمَ الْبِرِيطَانِيَّ .

الكابتن كوك يرفع العلم البريطاني على استراليا

وَمِنْ غَرِيبِ مَا حَدَثَ لِي ، فِي تِلْكَ الأَنْحَاءِ ؛ أَنِّي كُنْتُ يَوْماً فِي سَفِينَتِي قُرْبَ الشَّاطِئِ ، أَتَفَقَّدُ الْمَكَانَ ؛ فَاصْطَدَمَتِ السَّفِينَةُ بِجَرْفٍ مَرْجَانِيٍّ وَتَصَدَّعَتْ ؛ فَتَسَرَّبَ إِلَيْهَا الْمَاءُ ؛ وَاضْطُرِرْنَا لِبَذْلِ مَجْهُودٍ كَبِيرٍ ، لِتَصْرِيفِ الْمَاءِ ، كَيْلاَ تَغْرَقَ السَّفِينَةُ بِنَا . وَكَانَ حَتْماً أَنْ يَقُومَ الرِّجَالُ ، لَيْلاً وَنَهَاراً ، بِنَزْحِ الْمَاءِ ؛ وَكَانَ هٰذَا شَاقّاً لِلْغَايَةِ ! ! حَتَّى لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِهٰذَا الْعَمَلِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ دَقَائِقَ ؛ يَرْتَمِي بَعْدَهَا مَنْهُوكَ الْقُوَى ! ! وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْنَا بِضْعَةَ أَيَّامٍ ، كُنَّا نَرَى فِي أَثْنَائِهَا الْمَوْتَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ؛ اقْتَرَحَ أَحَدُ الْبَحَّارَةِ ، أَنْ نَأْتِيَ بِقَلْعٍ مِنْ قِلاَعِ السَّفِينَةِ فَنُغَطِّيَهُ بِالْقَارِ ، ثُمَّ نَفْرِشَ عَلَيْهِ بَعْضاً مِنَ الصُّوفِ وَالْقُطْنِ الْمَنْفُوشِ ؛ ثُمَّ نَجْعَلَ هٰذَا فِي قَعْرِ السَّفِينَةِ ، عَسَى الْمَاءُ

يَتَّسِعُ قَلِيلاً . وَعَمِلْنَا مَا أَشَارَ بِهِ الْبَحَّارُ ؛ فَكَانَتْ فِكْرَةً صَائِبَةً ! ! وَقَلَّ بِذٰلِكَ الْمَاءُ الْمُنْسَرِّبُ إِلَى السَّفِينَةِ ؛ وَوَصَلْنَا إِلَى الشَّاطِئِ بَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ ! مَرَّتْ كَأَنَّهَا سِتُّ سِنِينَ ! ! وَنَصَبْنَا الْخِيَامَ ، لِنُمْنِيَ بِالْمَرْضَى مِنْ رِجَالِنَا ؛ وَلِنُصْلِحَ مَا تَصَدَّعَ مِنْ سَفِينَتِنَا ! وَلَمَّا سَحَبْنَاهَا إِلَى الْبَرِّ ، وَجَدْنَا قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ الْمَرْجَانِ قَدِ اسْتَقَرَّتْ فِي الثَّقْبِ الَّذِي أَحْدَثَتْهُ الصَّدْمَةُ فِي قَعْرِ السَّفِينَةِ ! ! وَلَقَدْ حَمِدْتُ اللهَ كَثِيراً عَلَى عِنَايَتِهِ ! إِذْ لَوْلَا قِطْعَةُ الْمَرْجَانِ هٰذِهِ ! لَغَرِقْنَا حَتْماً ؛ وَلَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُحَدِّثَ إِلَيْكُمْ ! ! طَبْعاً !

وَفِي ٤ أَغُسْطُسَ سَنَةَ ١٧٣٠ غَادَرْنَا سَاحِلَ أُسْتُرَالْيَا الشَّرْقِيَّ ؛ مُتَّجِهِينَ صَوْبَ الشَّمَالِ ؛ فَوَصَلْتُ إِلَى أَقْصَى الْقَارَّةِ شَمَالاً . وَهُنَاكَ رَفَعْتُ الْعَلَمَ الْبِرِيطَانِيَّ ، وَأَعْلَنْتُ ضَمَّ الْقَارَّةِ إِلَى الْمُمْتَلَكَاتِ الْبِرِيطَانِيَّةِ بِاسْمِ الْمَلِكِ جُورْجَ الثَّالِثِ .»

ركن الكشافة

معسكر الكشافة الأهلى برومانيا

— ٤ —

حَدَّثْتُكَ عَنْ وُصُولِنَا إِلَى (براشوف) ، وَكَيْفَ قَضَيْنَا لَيْلَتَنَا فِي إِحْدَى عَرَبَاتِ الْقِطَارِ ، وَذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ النَّاسَ فِي مَيْدَانِ الْمَحَطَّةِ قَدْ حَيَّوْنَا بِأَحْسَنِ تَحِيَّةٍ ، فَهَتَفُوا لَنَا ، وَصَفَّقُوا ، وَلَوَّحُوا بِالْأَيْدِي وَالْمَنَادِيلِ . . . وَقَدِ انْطَلَقَتْ بِنَا سَيَّارَةُ (اللورى) ، وَنَحْنُ وُقُوفٌ إِلَى جَانِبِ أَمْتِعَتِنَا ، أَوْ جُلُوسٌ عَلَيْهَا ، نَمْلَأُ الْعَيْنَ بِمَا يَتَجَلَّى فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ حُسْنٍ وَسِحْرٍ وَبَهَاءٍ .

الْمَسَافَةُ بَيْنَ (براشوف) وَأَرْضِ الْمُعَسْكَرِ فِي (يُورْيَانَا) تَقْطَعُهَا السَّيَّارَةُ فِي ثُلُثِ سَاعَةٍ ، وَيَقْطَعُهَا الْإِنْسَانُ فِي أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ سَيْراً عَلَى الْأَقْدَامِ ، وَالطَّرِيقُ هُنَالِكَ طَرِيقٌ عَبَّدُوهُ لِرَاحَةِ الْمُعَسْكِرِينَ ، وَأَنْفَقُوا عَلَيْهِ كَثِيراً لِيُسَهِّلُوا لِلْكَشَّافَةِ حَرَكَةَ الِانْتِقَالِ ،